

بي بي سي: ألم مذبحه رابعة لا يزال باقياً منذ 10 سنوات



سلط تقرير نشرته هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) الضوء على مرور 10 سنوات على مذبحه رابعة والتي لا تزال آلامها مستمرة في الذاكرة حتى اليوم.

ويحسب الشبكة البريطانية، وقبل عشر سنوات، قُتل مئات الأشخاص، معظمهم من المدنيين، عندما فرقت القوات المصرية بعنف اعتصاماً احتجاجياً لأنصار الرئيس الإسلامي محمد مرسي.

وكانت حملة القمع ضد أنصار مرسي واحدة من أكثر الحوادث دموية من نوعها، وواحدة من أحلك اللحظات في مصر.

مقتل الإنسانية

وكما ذكرت سالي نبيل مراسلة بي بي سي العربية من القاهرة، فإن ذكريات ذلك اليوم لا تزال قاسية.

يقول عمرو، الذي شارك في الاعتصام الذي استمر قرابة 50 يوماً، في ميدان رابعة العدوية شرق العاصمة: «أتمنى لو لم أكن على قيد الحياة اليوم».

كان عمرو يبلغ من العمر آنذاك 20 عاماً فقط عندما رأى «جرافات تسحق الخيام وتجتاح كل ما يعترض طريقها».

ويقول: «قُتلت الإنسانية في مصر في ذلك اليوم».

واعتقل عمرو بعد أشهر قليلة من مذبحه رابعة، وأتهم بإلحاق أضرار بالممتلكات العامة وتعطيل النظام العام من بين أمور أخرى. وأمضى ما يقرب من خمس سنوات في السجن، قبل أن يفر من مصر في أواخر عام 2018 ويستقر في المملكة المتحدة.

يقول إنه شارك في الاعتصام لأنه كان يخشى أن ينتهي الأمر ببلاده في أيدي جنرالات الجيش.

إعادة تشكيل مستقبل مصر

وتلفت الشبكة إلى أن الفض العنيف للاعتصام في رابعة واعتصام آخر في النهضة في اليوم نفسه لم يكن فقط مآسي غير مسبوقه في تاريخ مصر الحديث، بل كان أيضاً من العوامل التي غيرت قواعد اللعبة التي أعادت تشكيل مستقبل الدولة العربية الأكثر اكتظاظاً بالسكان.

عندما انتُخب محمد مرسي، وهو شخصية بارزة في جماعة الإخوان المسلمين الإسلامية، في عام 2012، كان أول مدني يصل إلى القصر الرئاسي، ومن خلال عملية ديمقراطية. لقد كان انتصاراً استثنائياً لمؤيديه.

بعد عام واحد، خرج المتظاهرون المناهضون لمرسي إلى الشوارع مطالبين باستقالته. واتهموه باتباع أجندة إسلامية والفشل في أن يكون رئيساً لجميع المصريين. كان الجيش، اللاعب السياسي المهيمن على مدى السنوات الـ 70 الماضية، يراقب المشهد.

في أعقاب الاحتجاجات، أطاح وزير الدفاع، عبد الفتاح السيسي، بمرسي من السلطة، مما وضع حداً مفاجئاً للحكم المدني قصير العمر. وانتُخب السيسي نفسه رئيساً بعد عام ويشغل هذا المنصب منذ ذلك الحين.

«البحث في كل مكان»

وتطردت الشبكة إلى أن السلطات المصرية لطالما زعمت أنها دعت قادة الإخوان المسلمين مراراً إلى إنهاء ما وصفوه بالاعتصام «غير القانوني»، لكنهم تجاهلوا دعوتهم. واعتبرت الدولة ميدان رابعة العدوية منطقة متمردة كان لا بد من التعامل معها.

لم يخطر ببال عمرو أن الذخيرة الحية ستستخدم. وكان يعتقد أن قوات الشرطة ستلجأ إلى نكتيكات أكثر ليونة مثل استخدام المياه أو حتى الغاز المسيل للدموع. وقال إنه لا يستطيع تصديق عدد الأرواح التي فقدت بسبب الانقسامات السياسية.

ويتذكر قائلاً: «كانت البحث في كل مكان. لم نتمكن من العد. لم نتمكن من مساعدة بعضنا البعض».

وقال: «كان هناك طابور طويل من المدنيين، بمن فيهم النساء والأطفال، يرفعون أيديهم، ويغادرون الاعتصام، عندما قتلوا برصاص القناصة. رأيتهم بأعينهم».

قالت السلطات إنها فتحت ممرات آمنة للناس للمغادرة قبل أن ترسل قوات. لكن في تقرير نُشر بعد عام واحد من الفض، قالت هيومن رايتس ووتش إن قوات الأمن «حاصرت المتظاهرين معظم اليوم، وهاجمت من كل المداخل الخمسة الرئيسة للميدان ولم تترك أي مخرج آمن حتى نهاية اليوم».

وتقول مصر إن أكثر من 600 شخص معظمهم من المدنيين قتلوا. ومع ذلك، فإن الأرقام الأخرى التي قدمتها جماعة الإخوان المسلمين، المحظورة الآن في مصر، تتحدث عن أكثر من 1000. وقالت هيومن رايتس ووتش إن 817 شخصاً على الأقل فقدوا حياتهم.

وجاءت غالبية الضحايا من اعتصام الإخوان المسلمين، لكن بعض رجال الشرطة قتلوا أيضاً. واستمر العنف لعدة أيام بعد الفض.

«الشهيد الحي»

ويمضي التقرير قائلاً: لا تزال والدة أحد هؤلاء الضباط تشعر بألم فقدان ابنها.

يقول مصطفى إن والدته وفاء خرجت من فوضى 14 أغسطس سالمة. بعد يومين، أطلق النار عليه ثلاث مرات في معركة بالأسلحة النارية أثناء توجهه إلى مركز للشرطة في جنوب القاهرة.

كان مصطفى في العشرينات من عمره عندما توفي في 2016، بعد أن ظل في غيبوبة لمدة ثلاث سنوات. خلال هذا الوقت، لم تترك وفاء سريره في وحدة العناية المركزة.

تقول: «الناس الذين عرفوه وصفوه بالشهيد الحي». وكانت تتحكم في دموعها وهي تتحدث عن ابنها الأكبر والأقرب.

وتقول وفاء إن مقتل ابنها الشرطي دمر الأسرة.

عندما سُئلت وفاء عن ادعاء الإخوان المسلمين بأن الاحتجاجات كانت سلمية، كانت صريحة في ردها.

تقول بغضب: «إنهم مجموعة من الكذابين».

جرائم ضد الإنسانية

وقالت هيومن رايتس ووتش إن القتل في رابعة «لا يشكل انتهاكات خطيرة للقانون الدولي لحقوق الإنسان فحسب، بل يرقى على الأرجح إلى جرائم ضد الإنسانية».

ونفت السلطات المصرية بشدة كل هذه الاتهامات. وقالت وزارة الداخلية إن المشاركين في اعتصام رابعة مسلحون ويشكلون تهديدا خطيرا للقانون والنظام.

يقول عمرو، الذي اعتقل بعد أشهر قليلة من الاعتصام وقضى حوالي خمس سنوات في السجن إنه وحتى اليوم، عندما يسمع صفارات الإنذار للشرطة أو طائرة هليكوبتر تحوم، بالكاد يستطيع التنفس ويتذكر ما حدث في ذلك اليوم.

ويقول إن عائلته بأكملها تعاني من صدمة منذ عام 2013. شقيقه الأصغر، الذي بترت ساقه، لا يزال خلف القضبان، متهماً بالانتماء إلى جماعة إرهابية، كما سُجن والده الراحل لمدة عامين، بتهمة الاحتجاج دون إذن.

يقول: «حتى لو أُتيحت لي الفرصة للعودة إلى مصر، فإن الحياة التي عشتها ذات مرة قد ولت».